مذكرات

رضا نور

الحلقة الاول

عهد التلمذة سبب كتابتي للمنكرات

إنني اكتب حياتي ومذكراتي. لا اكتبها بقصد منفعة مادية ولا لمنفعة معنوية. فما الفائدة في هاتين المنفعتين. انهما لا شيء بالنسبة لي كإنسان فيلسوف الطبع مستغني عن المنافع الدنيوية والاخروية. انني اكن حبا أبديا وأزليا لا ينطفيء للأمة التركية، ولدي طموح عظيم لخدمة هذه الأمة. وهذا ما دفعني لتقديم العبرة للأجيال التركية.

إنني لم أقدم شيئا فيه الفخر ولا التواضع في هذا الكتاب. لقد كتبت الحقائق دون تحريف. كتبت ما هو في صالحي وما هو ضدي. أما الأشياء التي في صالحي فقد كتبتها دون أن أقيم وزنا للتواضع، ان الوقائع بمرها وحلوها ملك للتاريخ. لم أفصل القول في المسائل التي لم أرها بنفسي أو تلك التي لم أعلمها جيدا.

بعض المنتهزين للفرص سيعملون على الاساءة إلى بعد أن يدركوا بعض نقائض بقراءة اعترافاتي في هذا الكتاب، أقول لهؤلاء من الآن كم من شخص شجاع يستطيع أن يكتب مثلي حسناته وسيئاته؟ ومع ذلك فقد يقوم الذين وردت اسماؤهم في منكراتي هذه ـبعد موتيـ بالدفاع عن انفسهم، أو سيقوم الأحياء منهم بالدفاع. انني لا أكن لهؤلاء الاشخاص أي عداء. فإن كنت حيا عندما يحاولون الدفاع عن انفسهم فانني ساقوم بالرد عليهم.

أبي

ولدت في سينوب عام ١٢٩٤ من التاريخ الرومي. اسم أبي محمود زكي. كان بائع أحذية، يعرف القراءة والكتابة. مات وهو في الخامسة والسبعين من عمره. كان تركيا قحا، من سينوب. أما أول جد نعرفه فقد كان إماما في الجامع الواقع في القسم الذي يسمى حصار في قلعة سينوب عاش هذا الجد قبل ١٥٠ ـ ٢٠٠ عاما خلت. هدموا هذا الجامع عندما كانوا يشقون طريقا في هذا المكان. أذكر أن الخط الذي كان بباب الجامع كان خطا كوفيا، كان يشبه الخطوط التي استعملها السلاجقة. كان اسم عائلتنا امام اوغلو.

أمي

كانت أمي تركية خالصة من سينوب. معنى هذا أن دمائي تركية خالصة، وأنا افخر بهذا كانت أمي دائمة النصح لي. كانت تحثني على الفضيلة. كانت تكرر على بأن أكون شريفا وألا أتجاوز حق أحد، وألا اكذب، وأن أعمل الخير بأقصى ما استطيع وغير هذا من الفضائل، وكانت تربيتي على هذا. ربما كان الدافع لي على الفضيلة، هي التربية التي لقنتني إياها هذه المرأة. اعلم أنها لم تترك الصلاة أبدا، كان لهذه المرأة في وقت من الاوقات خادمتان. واحدة منهما ضلت السبيل وهربت مع أحدهم، فاسرعت أمي بطرد الأخرى وأقسمت الا تدخل خادمة بيتها بعد ذلك، وبالفعل ظلت تخدم نفسها بنفسها إلى أن ماتت.

أمي وفظاظة أبي

كان أبي رجلا فظا غليظ القلب، يضربنا أحيانا. (ذات يوم) عنف أبي، والدتي، فدخلت حجرتها وأخذت تبكي، ذهبت إليها. قلت لها: يا أمي إلى متى تتحملين هذه المعاملة السيئة التي يعاملك بها أبي؟ وأنت الآن يا أمي تاج فوق راسي، قولي لأبي كفى !. فقالت لي:«يا ولدي انه رجلي، وطاعة الأزواج هو واجب الزوجات، ان جنتهن تكمن تحت أقدام ازواجهن». دهشت لأخلاقها الفاضلة.

للأسف ماتت أمي عندما كنت منفيا خارج الحدود أيام الاتحاديين (أعضاء جمعية الاتحاد والترقي). كانت مريضة بالقلب، وكانت صورتي الفوتوغرافية معها دائما، وهي في فراش الموت. ماتت وكانت تقول: «آه يا رضا: ليتني آراك ولو مرة واحدة قبل أن أموت» ماتت ولم استطع تقبيل وجهها المبارك ولا يديها المباركتين.

تدين أمي

كنت نحيفا جداً أثناء دراستي للطب في استانبول. كانت الدراسة تعطل في رمضان. فكنت أذهب إلى بلدتنا سينوب. كانت في البيت: الصلاة والصوم. في ذلك العهد كانوا يطبعون صوراً آدمية على علب الكبريت. ولم تكن هذه العلب تدخل دارنا قبل أن تنزع أمي عنها هذه الصور، بالسكين. كان هذا هو الاسلام كما يلقنه مشايخ هذا العهد.

ضعف أمي أمامي وشربي الخمر

كان الصيام يرهقني. غذاؤنا في الطبية العسكرية سيء جدا. وفترة الاجازة هذه كانت فرصة للتغذية. قمت فاشتريت زجاجة خمر ودخلت المطبخ.

اكلت مما هو موجود، واخذت اشرب الخمر. احسست المراة التركية بهذا. فدخلت المطبخ وقالت: «يا أسفا! أتفطر في رمضان؟ هل كفرت؟ يا مصيبتاه. واذا بها فجأة ترى الخمر فقالت: «أووه!.. خمر! وكادت ان تسقط مغشيا عليها. خفت. اسرعت باحتضانها قبل ان تسقط. قلت لها: «أمي!.. أمي! أتسمعينني؟

انت تريني ضعيفا نحيلا يا أمي. عندما ارسلتيني الى استانبول للدراسة لم اكن هكذا بهذا الضعف. انهم لا يقدمون لنا طعاما جيدا في المدرسة. وأنا أنتهز فرصة وجودي هنا لمدة شهرين لأغذي نفسي فيها لكي استطيع المذاكرة عندما أرجع، والا فانني اذا استمرت هذه الحال سأموت. وتغلب حنان الأم على التعصب الديني وقالت: «حسنا يا ولدي. لكن إخف هذا عن والدك، فاذا عرف ومنع فأمره مطاع. ان شراب «الراقي» هذا لم يدخل بيتنا قط حتى هذه اللحظة قلت لها: «الخمر يعطي قوة وأنا أشربه كعلاج يا أمي». وبذلك تسامحت في شرب الخمر.

بعد نظر أمي

كانت هذه المراة الجاهلة التي لم تتعد كل ثقافتها قراءة سورة يسن، بعيدة النظر. وعندما انتخبوني نائبا في البرلمان أول مرة بكت لأنها لم تكن تريد هذا. وقالت لي: «انت رجل صريح. وستتوالى المصائب عليك. ولا أريد أن أفقدك».

اثبتت الوقائع بعد ذلك صدق نظرية أمي. مرت بي المصائب المصيبة تلو المصيبة: ـ من سجن ونفي وضرب في الشوارع وحكم الاعدام.. الى آخره. وفي السجن كنت اتذكر باسى شديد كلمات أمي.

تحول أبي إلى الفضيلة

قضى والدي مدة طويلة في الجيش. ونظرا لأنه التحق بوحدة الأحذية في الجيش، فقد تعلم هذا الفن وأجاده. كان والده يشرب خمر الراقي، وكان يجري وراء النساء. تزوج وهو في الثلاثين، فاذا به يترك شرب الخمر والنساء، وأخذ يصلي ويترك حاله القديم، وظل على هذا حتى مات، ولم يترك الصلاة قط.

أبي وصناعة الأحذية

كان والدي يكسب جيدا من الأحذية، لأن أغنياء الاماكن والمدن القريبة كانوا يعهدون إلى أبي صنع احذيتهم. والذي هو أول من ادخل صناعة الأحذية في مدينة سينوب ونشأ على يديه صناع كثيرون في هذا المجال. لكنني اذكر وانا في السنوات الاخيره من الطبية أن ظهر الأروام (اليونانيون) في صناعة الأحذية وكثروا، وأخذوا هذا الفن من يد الأتراك أما أبي فقد كان السن قد أخذ منه مأخذا.

أبي يتولى تربيتي

كان والدي شديد الاهتمام بتربيتي. لم يكن يتركني في الشارع بمفردي، كما كان يمنعني من الكلام مع الناس. وكان اذا غضب يضرب، وكثيرا ما ضربني، لا أنسى انه ضربني ذات مرة بماشة (مشاكة) الفحم، وكانت غليظة ولما ضربني بها أنثنت من قسوة الضرب. كان يأخذني بنفسه للفسحة. وعند عودتي من المدرسة، كان يحفظني كل يوم شيئا وكان يأمرني بكتابة الخط عشرة أسطر، وبفضل هذا حفظت أشياء طيبة، وتعلمت تحسين الخطوط. كان يلقنني الصدق دائما وينصحني بالتزام الشرف، وكان يقول لي اذا لم تلتزم به فانني سأذبحك. إنه لاسلوب طيب في تربية الأطفال مزج الترهيب بالترغيب.

كان لوالدي أخوة كثيرون. واحد منهم كان بكباشيا بيطريا، مات في بغداد. مات أبي وعمره خمس وسبعون سنة في سينوب، عندما كنت في روسيا أوقع معاهدة موسكو.

اخلاق الناس في سينوب

سينوب مدينة جميلة. يصف السلطان سليم الأول في أشعاره التركية سينوب بأنها من أهم القلاع. أهلها طيبون. لم اسمع اثناء فترة طفولتي عن سرقة ولا عن فاحشة. كان بعض الأهالي يغلقون ابواب بيوتهم ويضعون المفتاح على عتبة الباب، حتى لا ينتظر الزوج أمام الباب إذا كان زوجته ضيفة على جارة لها، ولم نسمع عن حادثة سرقة رغم هذا. لم يكن أحد في سينوب يعلم ما هي الفاحشة. كان فيها الامان وكان فيها الشرف. لم يكن للحكومة دخل في هذا، وانما كان بفضل اخلاق الناس. اما الآن فلم يعد لهذا وجود أصبح خيالا.

مشاعري الدينية في طفولتي وصباي

بدأت تعليمي وانا في الرابعة من عمري. أثناء طفولتي وفي ليلة رأس السنة، كنت والأطفال الآخرون نجمع ما

في بيوتنا من حصير قديم وتبن وما إلى ذلك، ونهرع الى الشوارع نوقد فيها نارا ونقفز فوق النار ونحن نردد كلاما ضد الكفار وفي صالح المسلمين. وهذه عادة تركية.. واحيانا كنا نجتمع خمسة عشر طفلا ونملأ جيوبنا بقطع من الحجارة الصغيرة ونذهب إلى أحياء النصارى نلقي عليها الحجارة، وكان هذا يسمى بين الاطفال «رجم الكفار».

وعندما بلغت الخامسة عشر من عمري، دخلت المدرسة الرشدية (الاعدادية) وكنت دائما متفوقا وترتيبي الأول على التلامذة فيها.

كنت أثناء هذه المرحلة ولوعا بقراءة المحمدية، والأحمدية، وقصة سيد بطال غازي، وقلعة الدم، وقلعة خيبر، وكانت هذه الكتب تعطيني الاحساس بالبطولة.

آسف لانتهاء الدين من حياتي

وفي فترة من الفترات تصوفت كثيرا. كنت دائما أصلي في الجامع اكتسابا للثواب الاكبر. كنت استيقظ مبكرا لأصلي صلاة الصبح حاضرا في الجامع. لذلك كان ابي وأمي ممتنين كثيرا. كنت اعيش في هذه الفترة في نشوى إلهية. واني اعترف ان كان هذا العهد من حياتي هو اسعد أيام حياتي. كنت في تلك الفترة أرى بحماس مدهش عندما اسمع الأذان، كنت أحس بنفسي وكأنني طائر يطير سعادة. لم تكن الارض تسعني من الفرحة. كان يخيل إلي وأنا امشي أنني لا أسير وانما أطير، وكان السماء كانت لي ديارا. كنت إنسانا تقيا بعيدا عن أدنى شائبة. كنت أحس بالله القادر على كل شيء. استمر هذا الحال عاما. ثم تركت الصلاة. كان سبب تركي الصلاة غالبا نتيجة سأمي وتعبي من صعوبة هذا العمل وكثرته، أو أن هذا كان فترة جاءت وذهبت. آه! ليت هذه الفترة ما انقضت من حياتي! ألف أسف عليها!.. إني الآن مخلوق يلازمه اليأس والكدر يعيش في تشاؤم، محروم من الأمل، فلا رجاء ولا سند.

سوء التربية: كتب جنسية تهديها لي المدرسة فتضرني

في امتحان السنة الاخيرة في المدرسة الرشدية كسبت مكافأة قدرها عشرة كتب. كان اسم احد هذه الكتب: «مرشد المقدمين على الزواج» فتح هذا الكتاب عيني على اشياء غريبة. كنت اقرأه بين الحين والحين. كان هذا أول ما اخذته من معلومات حركت شهوتي. كم هم أغبياء هؤلاء الذين أعطونا هذه الكتب مكافأة لنا! كم أن عقولهم سخيفة!

أنهيت الدراسة الرشدية وعمري اربعة عشر عاما. قالوا أنه لابد لدخول الطبية أن يدرس الطالب في الرشدية العسكرية، لذلك ادخلوني الرشدية، فكنت اذهب اليها راكبا السفينة. هناك يهود يركبون هذه السفينة من إحدى محطاتها. كان اكثر هؤلاء اليهود من العجلتز ذوي اللحى الطويلة، كانوا يجلسون ويقرأون في التوراة وتهتز لحاهم وهم يقرأون.

أول شربي للخمر

اشتريت من بقال ألباني شرابا قديما، شربته اثناء الفسحة، وكان ذلك بناء على توصية زملائي الطلبة. دخلت الفصل واذا بدماغي تلف وتدور. واحسست كأني في حلم عظيم. ثم تبين ان هذا الشراب الذي أوصاني به الطلبة لم يكن إلا الراقي (نوع من الخمور). ومن ثم فهمت الأمر، وكان ذلك أول سكر لي في حياتي.

زميل سيء يعقد حياتي

وفي السنة النهائية، كان معنا في الفصل طالب اناضولي فقير، كنت أرق لحاله، تصادقنا. كنت أعطيه من مصروفي. وعندما كان محتاجا لملابس داخلية أعطيته بعضا مما عندي منها. وكنت احبه حبا حقيقيا. كان اكبر مني بعام او اثنين. دعاني ذات مرة الى بيته. أصر على أن ابيت عنده ضيفا عليه فقبلت، كان عنده خمر الراقي، عرض علي أن نشرب معا فشربت. أعد لي سريرا. ونمت. استيقظت فجأة. ذلك لأني أحسست أن أحدا ما يشد قطعة ملابسي الداخلية السفلى ويقطعه. قفزت من السرير، فهرب الشخص سريعا. طار النوم من عيني. إرتديت ملابسي، ووجدت ان لباس عورتي مقطوع فعلا، كان الطالب الاناضولي الفقير هو الذي عمل هذا. وكان هذا تحقيرا لي وأي تحقير. كان لابد أن أنتقم من هذا الولد. زال هذا الحس عني بمرور الزمن. لكن هذه الحادثة كانت عبرة لي. إذ أنني لم اقدم له إلا كل خير واذا به يقدم على هذه الفعلة النكراء. وتوصلت إلى نتيجة هي أنه لا صداقة لانسان وطول عمري بعد ذلك وحتى الآن لم اتخذ لي صديقا بمعنى الكلمة.

اصبح هذا الولد بعد ذلك ضابطا، وعندما كنت أصادفه في الشارع كان يتجه ببصره نحو الأرض فورا إذ لم يكن يجرا على النظر إلى وجهي.

في السادسة عشر من عمري حصلت على الشهادة من رشدية صوغون جشمه وتهيات لدخول الاعدادية العسكرية (الثانوية العسكرية) قال لي أبي: «خير لك ان تكون طبيبا. وكنت اريد أن اصبح ضابطا. لكني سجلت اسمي في الاعدادية الطبية. درست ثلاث سنوات فيها. كانت الادارة فيها عسكرية. تشاجرت كثيرا مع الطلبة.. كانت الرغبة في المشاجرات اظهار البطولة.. كنت اريد أن ينحني الجميع لقوتي.. كنت ألعب المصارعة.